

فسأله: وهل أتى بالملح. فقام رهط من الجلوس ودرسوا جثة الميت فوجدوا لقاقة فيها الملح. فوجه الشيخ الكلام نحو قائله: «سيدي ان ولدي اناك بالملح فقم بلا تكلف وشرقي باكل طعامي». ثم اراد ان ينشطننا على الاكل فاخذ دُبلة من الكسكس وادخلها فاه وقال للجلوس: «هيا باسم الله يا اسيادي كلوا»

فلما رأيتُ هذا الجلد وسمعت هذا الكلام عمل في منظر الشيخ عملاً لا يوصف فاندفعت ابكي وعلا صوت نحيبي. ثم خرجت من الدوّار وحدي رغماً عن العاصفة واهوال الليل وقفر المكان لا اعني. فقام الشيخ مع الحضور ليوقفوني ويردوني الى القلّ الّا آتني لم أعزهم سمعي ولم انكص على الاعقاب لتوسلاتهم والحاحهم بل سرتُ هائماً في وجهي الى ما شاء الله

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

للاب هنري لامنس اليسوعي (تتمّة)

٦

اثبتنا في ما سبق ان القديس مارون عاش وتوفي في القورسيّة. وفيها دفن ايضا ليس بعيداً عن مكان وفاته. وذلك واضح لمن اعتبر قول توادوريطس. وقد ادّى بنا من جهة أخرى مجال البحث في الفصل السابق الى ان نجعل دير القديس مارون قريباً من افامية اعني على مسافة نحو مئة كيلومتر جنوباً من قورس. وكأني بالقارى يستغرب الامر ويجد في تعيين موقع هذا الدير خارجاً عن القورسيّة بعض التناقض ويشك في صحّة النتائج التي استنتجها

كلّاً لا تناقض في ما قلنا. وان يكن في الامر مشكل. وأنما المشكل اعظم واقرى اذا ما جعلنا موقع دير القديس مارون في جهات حمص اعلم أنّه لا يعرف نصّ واحد يذكر صريحاً ان جسم القديس مارون دفن في افامية. بل في قول توادوريطس ما هو عكس ذلك. وأنما ثبت التقليد ان راس الناسك القديس بعد خراب ديره القريب من افامية نُقل الى لبنان

أما ذخائر القديس فلا نعلم أن نقلت أيضاً بعد وفاته ببضع سنوات الى جهات افامية ام لا وان كان الامر محتملاً ولعلّ الباحثين يجدون حلاً لهذا المشكل في التفاصيل التاريخية النادرة التي كتبت عن اديار افامية ونواحيها وكانت هذه الاديار كثيرة قد ذكر منها توادوريطس في رسالته ١١٩ ديراً « موقعه على ثلاثة اميال من افامية » طلب ان يعتزل فيه وهو يسميه ديرة كانه عاش فيه العيشة الرهبانية ١)

ونصف فضلاً عن هذا الدير قرب افامية ديراً آخر شهيراً وهو دير مار بسوس ٢) الذي نشر عنه الحوري شابو كتاباً مؤمناً ٣) ومما ورد في اثنايه ان عدد رهبانه بلغ ٦٣٠٠ راهب (ص ٦١). ألا ان صاحب هذا الكتاب قد وهم بقوله ان هذا الدير كان في بلاد حمص او قريباً من هذه المدينة ٤) والصواب ان دير مار بسوس كان بجوار افامية. وفي ما سبق اشرنا الى هذا الغلط وسببه ولا نخال ان الكتب خلطوا بين دير مار بسوس ودير مار مارون لوتوقع كلا الديرين في جوار افامية. والدليل عليه ان الديرين اسماً مختلفاً فضلاً عن ان دير مار بسوس اضحى بعد قليل مركزاً للبدعة العقويّة ٥)

فوجود عدد وافر من الاديار في نواحي افامية برهان جديد على ما كان لتلك الناسك من المقام الرفيع والشهرة الذائعة ولا حرج بعد ذلك ان نسلّم بصحة ما رواه الرواة عن خطر دير القديس مارون وعظم شأنه ومما اخبر به توادوريطس ايضاً ان القديس الناسك مرقيان القورسي ارسل واحداً من تلاميذه اسمه اغابيتس فوكل اليه بان يعمّر اديرة عديدة قرب افامية وبالاخص عند نقيرة (Nixeptra) وهي بلدة واسعة كثيرة السكّان ابنتى فيها اغابيتس معهدين

(١) ان توادوريطس كان راهباً الى سنة كهنته فدخل في جملة اكليرس انطاكية

(٢) راجع كتاب العلامة روبنس دوقال في الاداب السريانية (ص ٢٥٣) والمجلة الشرقية
اللاتينية 217 XXX ZDMG

(٣) راجع J.-B. Chabot : *La légende de S' Bassus et son couvent à Apamée*, 1893.

(٤) قد جاء في مجلة الشرق المسيحي ذكر دير ثاثل في افامية (ROC. p. 1902, 611.)

(٥) راجع ايضاً مقدّمه الحوري شابو (ص ٥ و ٩)

لتعليم الحكمة السموية دُعي الواحد باسمه. وجمع فيها فوق المئتي راهب تجنّدوا للفضيلة ولازموا التّقي (١). وقد ورد اسم نقيّتا هذه في كتابتين يونانيتين تراهما في مجموع الكتابات اليونانية (٢) تحت العددين ٩٨٥٥ و ٩٨٧٧ وفي جدول المخطوطات السريانية المصنفة في المتحف البريطاني (Wright, Cat. 756. c. 2) اسم رئيس تولى رئاسة دير نقيّتا. أمّا نقيّتا المذكورة فليس لدينا نصٌّ صريحٌ يفيدنا عن موقعها بالتدقيق في جوار اقامية قلّة ما نعلم من امور تلك الناحية (٣)

ولعلّ سائلاً يطلب او ليس دير القديس مارون احد الاديار التي ابتناها القديس اغايتوس في جوار اقامية ؟ اجبنا ان هذا لرأي سبقتنا اليه حضرة الاب جوليان اليسوعي في كتابه عن « جبل سينا وسورية (٤) » ولا نرى داعياً لانكاره اذ ان درس الامكنة ومواقعها لا يخالف هذا المذهب وله سندٌ في التاريخ لأن وفاة القديس اغايتوس وقعت بعد وفاة القديس مارون. على أنّنا لا نوافق حضرة الاب جوليان في زعمه بان « دير القديس مارون كان بين اقامية وحمص على ضفة العاصي ليس بعيداً عن حمص في المكان المعروف اليوم بالدير الكبير (٥) »

قد مضى علينا نحو ثلاث سنوات مذ زرنا قرية الدير الكبير الواقعة على مسافة ساعة ونصف من حمص في شمالها الغربي على ضفة العاصي الغربية ووجدنا فيها آثاراً قديمة. بيد انّ نظرها لم يعدل بنا عن راينا وفي حجبنا السابقة ما هو كافٍ لبيان. وعندنا انّ حضرة الاب جوليان خُذع بما كتبه المؤرخ الشهير صاحب حماة الملك المؤيد ابو الفداء وهو يجعل الدير في حمص نفسها. ثم غرّه ايضاً اسم « الدير الكبير » ألا انّ سالنامة ولاية سورية روت اسم هذه القرية على صورة اخرى فدعتها « الدار الكبير » ولعلّ الصواب « الظهر (الضهر) الكبير » كما سمعناه او فهمناه من اهل القرية. وهذا الاسم يوافق المسّمي لأن القرية على ظهر ربوة

(١) راجع تاريخ الرهبان في مجموع مين (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

(٢) CIG, 9855 et 9877

(٣) طالع ما كتبه في هذا الصدد الاستاذ هرغان (ZDPV, XXIII, 145)

(٤) Jullien: *Sinai et Syrie*, p. 178

(٥) فيه صفحة ١٧٨

وقد ذهب الاب مرتينوس اليسوعي في تاريخه المخطوط عن لبنان الى راي آخر نستلفت اليه نظر القارى. قال المؤلف المذكور الذي وقف كل حياته على البحث عن لبنان وتاريخه: « لا يبعد ان القديس ماري (Marès) الراهب القس في ناحية افامية الذي وجه اليه القديس يوحنا في الذهب رسالة (١) هو القديس مارون عينه (٢) لان الاسمين ماري ومارون لا يختلفان عند كتبة اليونان في سوربة وليس ماري سوى مارون مع اختلاف حركة الاعراب في اليونانية فشاخ هذا الاسم في الناحية. اما تلقيبه بالقديس فقد جرى على ذلك رهبانه تبجيلاً له فاقتدى بهم في الذهب

» ومثالنا في ذلك مثال ديرين آخرين في جهات افامية عرف الواحد منهما باسم القديس سمعان والآخر باسم القديس اغايثوس (٣) وتؤيد هذا الراي الخالف للراي العمومي رواية توادوريطس في تاريخه (٤) الذي يفيدنا ان جمهور الرهبان الذين اتوا من القورسية الى بلاد افامية لينشئوا فيها الاديار كانوا تلامذة للقديس الناسك مارقيان ليس تلامذة القديس مارون لان المؤرخ المذكور افادنا انه لم يخرج احد من رهبان القديس مارون من بلاد قورس (٥) ولا يبعد ان تلاميذ القديس مارقيان وكان اصلهم من بلاد قورس (٦) دعوا احد الاديرة التي شيّدوها في بلاد افامية باسم القديس مارون لآكرامه الا ان كلام توادوريطس صريح في القديس مارقيان حيث قال: « ومارقيان الالهي هو الذي انشأ كل اديرة بلاد افامية (٧) » فلا يمكن اذن ان ينسب انشاء احد هذه الاديرة لتلامذة القديس مارون. ومن ثم لا نستغرب القول بان ماري الذي اوفد اليه القديس يوحنا في الذهب برسالة كاحد رؤساء الدير مع القديس سمعان (٨) هو منشي الدير وان عرف باسمه اولاً دير القديس مارون. هذا ونقر ان الاقادات التاريخية في هذا الخصوص لحلة جداً. ومن المحتمل انهم لم يمتروا

(١) هي الرسالة ٥٧ وهي غير رسالته الى مارون الكاهن

(٢) هذا زعم لا يمكننا التسليم به اذ ان فم الذهب يثبت في هذه الرسالة ان ماري عاش في مقاطعة افامية خلافاً لما نعرفه عن القديس مارون

(٣) راجع توادوريطس في تاريخه المذكور (ج ٨٢ ص ١١٢٨)

(٤) في المجلد والصفحة عنها (٥) راجع تاريخ الرهبان (ع ١٦ و ٢٥)

(٦) او على الاقل كبارم الذين شيّدوا الاديرة (٧) تاريخ الرهبان (ع ٣)

(٨) راجع رسالة القديس يوحنا في الذهب ٥٥

بين القديس مارون والقديس ماريان الذي ورد مكتوباً في بعض النسخ ماريان (١) « هذا ما رواه الأب مرتينوس في تاريخه وهو زعم نوره على علته دون ان نحكم فيه (٢٠٢) وما يزيده بعض الرجوح شهرة القديس ماريان فان اسم هذا القديس كان ذاتها مستفيضاً حتى ان معاصريه شيدوا بيعة على اسمه قبل وفاته أفيستغرب احد ان يكون رهبانه حاولوا بعد مجيئهم من بلاد قورس الى الحماة اقامية ان يخلدوا ذكره بابتناء دير على اسمه . وعلى كل حال لو صح هذا الراي لفضّ المشكل الذي نحن بصدده ويظهر لكل العيان كيف دعي احد اديرة اقامية باسم القديس مارون الذي توفي في القورسية . وما لا شبهة فيه ان في السنين الاولى من القرن السادس كان الدير المذكور لا ينسب الى غير القديس مارون وان اقرضنا ان رهبان الدير حصلوا على قسم من ذخائر القديس مارون او على جسمه الطاهر كله فلا عجب ان يكون التعبد للقديس امتد الى كل جهات بلاد الشام

اماً ما حدث بعد ذلك لدير القديس مارون فان ابا الفداء يعلمنا في كتاب تقويم البلدان (ص ١١٤) ان الملك مرقيان وسعه في السنة الثانية للملكه اعني سنة ٤٥٢ . ولما تحمل اليعاقبة على ابنته فاخربوها (٣) في اوائل القرن السادس اعاد بناءه الملك يوسطنيان الكبير (٤) الذي ضبط زمام الملك من سنة ٥٢٧ الى ٥٦٥

وقد اخبر سعيد بن بطريق في تاريخه ان هرقل الملك تنفد هذا الدير سنة ٦٢٨ لما رحل ظافراً الى سورية فوقف عليه اوقافاً عديدة (٥) وفي عهد هذا الملك جرت بين اليعاقبة ورهبان دير مار مارون مخاصمات ذكرها ابن العبري في تاريخه الكنسي وقال ايضاً ان المواندة اخذوا من اخصاصهم عدة كنائس ابي هرقل ان تود الى اليعاقبة (٦) ولم يزل هذا الدير زاهراً في سنة ٧٤٥ كما ورد في نص سرياني نشر الحوري نو ترجمته بالفرنسية (٧)

(١) راجع تاريخ الاب مرتينوس الصفحة ٢٢٢٨ و ٢٢٢٩ (٢) الا زعم بان ماري ومارون اسم واحد فانتا لا نسلم به (٣) وقيل انه خرب بزلزال (٤) راجع كتاب بروكو بيوس في الابنة (ك ٤ ف ٩) (٥) راجع اعمال آباء اليونان لمن (PPGG, CXI, 1089) وراجع الصفحة ١٣٩ من نسخة تاريخ ابن بطريق الحطية المصونة في مكتبته الشرقية في ظهر الصفحة (٦) Chronicon Eccl. I, 270-274 (٧) Bulletin de S. Louis des Maronites, Janvier 1901 p. 346

والمظنون أن خراب هذا الدير تم في القرن التاسع فاضطُرَّ رهبانهُ ان يأتوا الى لبنان مع سكّان الناحية المجاورة له. وفي قول السعودي الذي اوردناه سابقاً أن دير القديس مارون كانت اغتالته في عهده (اعني في اواسط القرن العاشر) يد الزمان فحُرب. ثم لا تعود ترى له من بعد ذلك اثرًا في التاريخ حتى ان ياقوت الرومي لم يذكره في معجم البلدان مع انه افاض في وصف اديرة كثيرة اشتهرت في بلاد الشام منها خربة ومنها مأهولة بالرهبان. وكذلك تصفّحنا تأليف جغرافي العرب المتعددة لعلنا نجد شيئاً عن دير القديس مارون فذهبت مساعينا سدّى ولم نقف على ضالّتنا مع ان هؤلاء الكتبة كرّروا مراراً اسماء الاديار الشاميّة ورووا من ايات الشعراء ما ورد فيه ذكرها

وهذا المعري من الامور القريية أن ديراً طار اسمه في البلاد مدّة القرنين السادس والسابع فاصاب من الشهرة ما اصاب في تاريخ سورّية الديني يصبح بعد مجده نسباً منسياً لاسيّا أن دير القديس مارون لم يكن ديراً منقطعاً لا نفوذ له بل كان يدخل تحت حكمه اديار أخرى تعرف له حقوق السيادة كما كان شأن الاديرة في سورّية الشمالية وسورّية الوسطى فان اديرتها الرهبانيّة كانت ترتبط بين بعضها بروابط متينة بحيث تكون السيطرة لدير اعظم تخضع لرناسته بقيّة الاديار المجاورة له (١). وهو امرٌ يصدق في دير القديس مارون الذي امتدّت رناسته على سائر اديار سورّية الثانية. غير انه يحرّ علينا ان نبيّن حدود هذه الرئاسة وسعة نطاقها. فلا نعلم أكانت هذه الرئاسة شرفيّة محضاً او كان لرئيس الدير الكبير بعض السلطة على بقيّة الاديرة. كما انه يصعب علينا ان نبيّن اصل هذه السلطة فلا ندري أكانت ناتجة عن تفرّع دير من آخر او بارادة منشي الاديرة او بمجروج مستعمرة رهبانيّة من الدير الاكبر فكل هذه المباحث عويصة لا يُستطاع حلّها سهلاً

وعلى كل حال ان تقدّم دير مار مارون ورناسته على بقيّة الاديار لمن الامور الحريّة بالاعتبار فانّ ذلك يبيّن لنا كيف امتدّت سريعاً الطائفة المارونية ليس فقط في بلاد افامية لكن في الايلات الخارجة عنها ايضاً. وعلى رايانا أن كل دير من هذه الاديار

المنوطة بدير القديس مارون اضحى بعد مدة مركزاً لفئة من المؤمنين الذين غوا عدداً بعد حين وانتسبوا الى القديس مارون. وفي مقالتنا السابقة عن انتشار الموارنة رأينا كيف خرج منهم فئات دخلوا لبنان واستعمروا الجهات الواقعة لشمولهم وازديادهم فيرى القارئ ان هذا البحث الجغرافي عن سيرة القديس مارون يرتبط بالبحث السابق اعني اصل الطائفة المارونية وكيفية انتشارها. وهذا ما حملنا على التدقيق في تعريف الامكنة التي نشأ فيها القديس مارون كيف لا وهو ابو طائفة تعد من اعظم الامم اللبنانية عظمها هذا الرجل العظيم بعيشته وموته وفي الختام احببنا ان نلخص للقراء ما اُتسعننا في بيانه في هذه المقالة لتبقى خلاصتها في ذاكرتهم :

- ١ لا مرا. ان القديس مارون عاش ومات في القورسيّة
- ٢ ان الرأي الاصح في مولده انه ولد ايضاً في القورسيّة وليس في جوار انطاكية
- ٣ دفن القديس مارون في حدود القورسيّة الجنوبيّة
- ٤ كان موقع دير القديس مارون مهد الطائفة المارونية بين نهر العاصي واقامية. وهذا ممّا لا ريب فيه
- ٥ امّا كيف دُعي هذا الدير باسم القديس مارون وكيف نقلت اليه ذخائره فامران لا يمكن القطع بهما فتستنى ان يحكم غيرنا فيها حكماً فصلاً فيصرح الحق عن محضه (تمّت)

يَمِينُ الْعَلِيّ

رواية تاريخية للاب س. ت. اليسوعي (تابع)

كتاب لوقيليوس الى الضابط راسيوس

في ١٥ آذار

أيها العزيز

قد اجبتك سابقاً عن رقيمك الذي وجهته الي من قيسريّة فيلبوس. ألا ان